المنهج الموضوعاتي

1-عن الموضوعاتية:

تحيل كلمة موضوعاتية إلى الكلمة الفرنسيةThématique التي تعني علم الموضوع، أما من الناحية الاصطلاحية فالموضوعاتية هي اختصار لعبارة المنهج الموضوعاتي وهو المنهج النقدي الذي ظهر في فرنسا في الستينيات من القرن الماضي منبثقا من الفلسفة الظاهراتية التي جاءت كرد فعل على الفلسفة المثالية والفلسفة التجريبية على حد سواء مؤكدة على العلاقة بين الذات والموضوع، معتبرة أن الوجود "ظاهرة تقع في الوعي"(1) ولهذا يشار أحيانا إلى النقد الموضوعاتي بعبارة النقد الظاهراتي أو النقد الفينومينولوجي. وعلى العموم فالموضوعاتية تتغيا "استخلاص الفكرة العامة أو الرسالة المهيمنة أو الرهان المقصدي أو الدلالة المهيمنة أو البنية الدالة التي تتمظهر في النص أو العمل الأدبي عبر النسق البنيوي وشبكاته التعبيرية تمطيطا وتوسيعا أو اختصارا وتكثيفا، والبحث أيضا عما يجسد وحدة النص العضوية والموضوعية اتساقا وانسجاما وتنظيما"(2). لقد استعادت عملية القراءة مع النقد الموضوعاتي قداسة التيمة، فالأدب ليس مجرد هيكل تؤلفه مجموعة عناصر مرتبطة بعلاقات معينة ومحكومة بنسق ما، ولا هو ممارسة لغوية تختزل غايتها في جمال مؤقت، لكنه كيان دال ينطوي على رسالة مهيمنة. إن النقد الموضوعاتي "ينطلق من رفض أي تصور لعبي أو شكلاني للأدب، ورفض عتبار النص الأدبي غرضا يمكن استنفاذ معناه بالتقصي العلمي. وفكرته المركزية أن الأدب هو "موضوع تجربة وأن هذه التجربة ذات جوهر روحي"(3) وعندما نتحدث عن الروحي فنحن نستحضر بشكل ما هواجس الذات والقيمة والإيتيقا وكل ما استبعدته النزعات الشكلانية وحاولت استعادته تيارات ما بعد النسق. وعلى العموم يمكن القول إن النقد الموضوعاتي هو اتجاه من اتجاهات النقد الجديد الذي عرفته فرنسا في ستينيات القرن الماضي، وهو اتجاه يبحث في تيمات النصوص متتبعا

مدلولاتها على مستوى المفردة كما على مستوى الجملة في مجموع آثار كاتب ما على اعتبار أن العمل الأدبي وحدة كلية.

2-رواد المنهج الموضوعاتي: لعل غاستون باشلار كان سباقا إلى قراءة "الموضوعات" لذا يمكن عده من الممارسين الأوائل للنقد الموضوعاتي في فرنسا. فقد اشتهر بسلسلة من الشعريات (شعرية الفضاء، شعرية التخييل، شعرية الماء، شعرية النار، شعرية الحلم...) وكل تلك المؤلفات إنما تقرأ "موضوعة" ما قراءة ظاهراتية عابرة للتخصصات تستفيد من حقول معرفية عدة (علم النفس، علم الدلالة، السيميائيات، اللسانيات، علم الجمال...) ثم أرسى دعائم هذا المنهج مجموعة من الأعلام في مقدمتهم جون بول ويبر وجون بيار ريشار وجورج بولي وجون روسي وجيلبار دوران وجون ستاروبنسكي...أما في الوطن العربي فقد اهتم بالنقد الموضوعاتي عديد النقاد العرب أمثال العراقي عبد الكريم حسن ،و المغربي عبد الفتاح كيليطو، و سعيد علوش ، وحميد لحميداني وعلي شلق الذي طبق بعض إجراءات هذا المنهج على شعر المتنبي وابن الرومي وأبي العلاء المعري.(4)

3-مقولات المنهج الموضوعاتي وإجراءاته: لعل القضية الأساسية في المقاربة الموضوعاتية هي "إمكانية الحديث عن الموضوعات أو الأفكار ضمن الأدب دون اختزال خصوصية الأدب، أي دون أن نحيله إلى مجرد نظام بسيط من الترجمة"(5) كما يذهب إلى ذلك المعجم الموسوعي الجديد لعلم اللغة . والواقع أن تطبيق المنهج الموضوعاتي -شأنه شأن كل المناهج النقدية- يختلف من ناقد إلى آخر، ومع ذلك يمكن اختصار أهم مقولات المنهج في القضايا الآتية:

-"موضوع الكاتب" أي الفكرة المهيمنة على الكاتب والتي يتمحور حولها بشكل إرادي أو لا إرادي ويتلخص عمل الناقد في هذا المستوى في العناية بالمواضيع التي شغلت الكاتب والتي ترد عادة مبعثرة فينظمها ويحددها. وحسب ويبر فهناك موضوعاتية واحدة تسيطر على النص الأدبي أما الموضوعات الأخرى فهي ذكريات تنبثق عن الموضوع المهيمن فقط

"فالموضوع هو الأثر الذي تخلفه إحدى ذكريات الطفولة في ذاكرة الكاتب أو الفنان وتلتقي فيه كل آفاق العمل"(6) ولعلنا نلاحظ هنا ارتباط المنهج الموضوعاتي بما أفرزه حقل علم النفس الذي ينظر إلى مجمل أفعال الإنسان في ارتباطها بالطفولة ويلح على تكوّن شخصية الطفل مبكرا.

-يهتم المنهج الموضوعاتي برصد ما يمكن تسميته بالموضوع-النواة المركزية، حيث يكون الكاتب مشدودا إلى بؤرة دلالية على طول أعماله، ووظيفة الناقد تتبع آثار الكاتب والوصول إلى تلك البؤرة، والموضوع في هذا المستوى "هو التردد المستمر لفكرة ما، أو صورة ما فيما يشبه لازمة أساسية وجوهرية، تتخذ شكل مبدأ تنظيمي ومحسوس أو ديناميكية داخلية، أو شيئ ثابت يسمح للعالم المصغر بالتشكل والامتداد"(7) ويمكن أن نمثل في هذا السياق بموضوع المكان-الهوية عند محمود درويش، وهو موضوع تمحور حوله الشاعر منذ أن كان يافعا رغم كل ما طرأ على هذا الموضوع من تشعبات غذتها الفلسفة والتجربة الحياتية للشاعر.

-يبحث المنهج الموضوعاتي عن البنيات الداخلية التي تربط موضوعات الكاتب أو الشاعر فيما بينها حيث " الموضوع هو مجموعة من المفردات التي تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة"(8) كما يقول عبد الكريم حسن.وهنا يتم تصنيف الحقول الدلالية المختلفة التي تنتظم موضوعات الكاتب.وعلى العموم " فالعمليات الأساسية في القراءة الموضوعاتية، حسب سعيد علوش في "النقد الموضوعاتي" تتلخص في الجرد/ تحديد الموضوع الرئيسي/ تحليل المفردات/ الموضوعات الفرعي(9)" إن الإحصاء خطوة أساسية أولى في عمل الناقد الموضوعاتي، يليها التحليل وكشف العلاقة بين الموضوعات المهيمنة وإعادة بناء عالم الكاتب وهو ما يتطلب قارئا منتجا.

4-النقد الموضوعاتي ممارسة بينية: أشرنا سابقا إلى أن النقد الموضوعاتي ترعرع في أحضان الفلسفة الظاهراتية ومن تم راح يدرس الموضوع وتموقعه في وعي الكاتب بمنطق

الفينومينولوجيا، وكانت هذه الأخيرة من أكبر الروافد الفكرية التي نهل منها هذا الاتجاه. كما تستفيد الموضوعاتية من التحليل النفسي متخذة من قضية "الرغبة الدفينة" محورا لدورانها. والرغبة الدفينة هي السبب العميق الذي يجعل الكاتب يتمحور بشكل دائم حول موضوع ما، فيتخذ هذا الأخير شكل الحلم والهاجس فيبدو الكاتب كما لو أنه "يهذي" بذلك الموضوع . كما استفاد النقد الموضوعاتي من مفاهيم الوعي والمسؤولية وحرية الاختيار وهي مفاهيم وجودية عنت بها فلسفة سارتر عناية كبيرة ووظفها في طرح أسئلته عن أسباب اختيار موضوع والتعلق به بل والدفاع عنه بمسؤولية ظاهرة في النص الأدبي. ولا ننسى في هذا السياق اتكاء الموضوعاتية على المعطيات التي أمدتها بها المناهج النسقية وفي مقدمتها الإحصاء والجرد وتواتر العناصر البنيوية في نص ما.

بقي لنا أن نشير في الأخير إلى أن المنهج الموضوعاتي وبقدر ما لقي من الترحيب والانتشار في العالمين الغربي والعربي، بقد ما وجهت إليه أصابع الاتهام بوصفه منهجا يأخذ من عديد الحقول المعرفية المتباينة فيما بينها، مما يفقده الصرامة المنهجية ويجعله منهجا مائعا، أضف إلى أنه يتسم بقدر كبير من التأثرية وهو ما ينافي الروح العلمية التي ينبغي أن تميز العمل النقدي يكون مجديا.

هوامش المحاضرة: